عمر أميرالاي... عن مثقفي الخلسة والمنع في سوريا

رستم محمود □

منذ قرابة العقد من الزمن، في سنوات صبانا الأولى، تعرفنا على أفلام عمر أميرالاي خلسة. ففي سنوات الدراسة الجامعية الأولى، كان الطلبة يتبادلون أشرطة أفلامه فيما بينهم بشكل سري، وبالذات فيلمه الأخير الذي كان قد صور وقتها «طوفان في بلاد البعث». وأكثر ما علق في ذهني عن ذلك الفيلم، أنه في المرة الأولى التي شاهدته، كان بعض الأصدقاء في القسم الداخلي للطلبة بجامعة دمشق، وأثناء المشاهدة، دق باب الغرفة، وما كان أحدهم يهم بفتح الباب، كان الآخرون قد فصلوا الكهرباء عن جهاز العرض وإخراج السي دي ووضعه بين الكتب، والجلوس بطريقة تبعد عنهم أية شبهة بأنهم كانوا يتابعون شيئاً ما سوية. وحينما كنت أخبر المراحل أميرالاي بهذا الموقف، مستدلاً على كمية الخوف في وجدان السوريين، كان يبتسم بألم ويرد: «شايف شايف!!».

منذ زمن الصبا ذلك لم نر عمر أميرالاي، ولو لمرة واحدة في وسيلة إعلامية عامة، لا هو ولما نتاجه السينمائي. فقد كان أحد المحجور عليهم، في عالم «الثقافة الرسمية السورية» ومشاغها. فلك أميرالاي وأسئلته لم يكن فيها ما هو مشترك مع هذه الأخيرة. ذلك أن القضية الثقافية المركزية وذات الأولوية بالنسبة له لم تكن بنية اتحاد الكتاب العرب، أو الفريق الذي يدير مهرجان دمشق السينمائي، ولما السبب الخفي وراء فوز فلان بالجائزة الفلانية، ولما ذوعية المطبوعات في وزارة الثقافة، ولما تغير مدير مديرية المسارح، كما توهمنا كتلة هلامية تسمى «المثقفين الرسميين» في سوريا. ما كان يشغل ذهن ووجدان أميرالاي بعيد عن ذلك تماماً، فقد كان مشغولاً بالدقائق البسيطة لألم الآخرين، ذلك الألم كان يعتبره قضيتته وألمه الشخصي. لذا كان ثمة برزخ بنيوي بين عالمي أميرالاي والثقافة الرسمية. فما أن يجالس أحد الشباب حتى يبدأ بجملة من الأسئلة التفصيلية عن واقع المنطقة التي هو منها، أسئلة تبدأ من علاقة ومواقف الجماعات والطوائف السورية من بعضها البعض، وطريقة تعايشها اليومي، وقد تنتهي بالسؤال عن تغيرات نوعية التربة الزراعية وأسعار الخضار... الخ. هذه التفاصيل ومعانيها وآلامها كانت بمثابة المرآة الكاشفة لبلادة وجمود وعممية وعموميات الثقافة الرسمية في البلاد، لذا كان عقابه مثل غيره من «التفصيليين»: الحجر والمنع. □

ليلة السبت الماضي كنت أهم بفتح موقع وكالة الأنباء السورية، للاطمئنان على هطول الأمطار في منطقة الجزيرة، فدهشت لرؤية صورة أميرالاي في الصفحة الرئيسية. لبرهة انتابني شعور غريب بأن شيئاً رهيباً قد حصل، فصورة أميرالاي وأمثاله في موقع كهذا مستحيلة المظهر تقريباً. بقيت تلك الدهشة حتى أدركت ذلك العنوان البارز «وفاة المخرج عمر أميرالاي». هاتفت صديقنا المشترك ياسين الحاج صالح لأعزبه وأقتسم الحزن معه. أخبرني ياسين بأنه سيدفن غداً، وأن انطلاق الجنازة سيكون من أمام بيت والده في أول شارع باكستان وسط دمشق. لم أكن أعرف العنوان بالضبط، فذهبت قبل الموعد بنصف ساعة، وطوال نصف ساعة كنت أدور على المحلات العامة والمعابر في الشارع القريب، لأستدل على بيته أو أن ألاقى أحداً يعرفه ويرافقني إلى هناك، فما كان من أحد في ذلك الشارع المزدهم ذاهب ولما من أحد يعرف عنوانه، أو حتى سمع باسمه. كل هؤلاء الذين سألتهم، كان مكان سكنهم يبعد عن سكن أميرالاي بضعة عشر متراً، ومع ذلك لم يكن أحد يعرفه. فغربة أميرالاي وأمثاله عن فضاء الثقافة الرسمية السورية، كانت مدخلا لغربة السوريين كلهم عن الثقافة. □

كنت من الذين تعرفوا على سينما أميرالاي قبل التعرف عليه شخصياً، لكن المعرفة الشخصية هذه لم تضيف إلي شيئاً يذكر، فكل عمر أميرالاي كان موجوداً في تفصيل من سينمائه. فكما كان ساخراً بطبعه، كانت سينمائه تكشف دوماً التناقضات التي باتت بداهة، وباتت كشف التناقض فيها يحتاج لسخرية لاسعة. وكما كان هادئاً، كانت الكاميرا في لفته السينمائية تقف في مكان يرصد حركة الواقع وحيويته. وكما كان صادقاً، كانت سينمائه تحذل المجاز بنعت الأشياء بأسمائها الحقيقية. وكما كانت سينمائه أداة لظهور المهمشين، كان عمر أميرالاي كلما كلمته، وفي أي وقت كان، طالبا منه موعداً، لا يملك غير جواب واحد، عزيزي ممكن بعد ساعة بمقهى الداون تاون. فهذا الوقت المفتوح للآخرين، كان أحد أهم الأشياء التي كان يتميز بها أميرالاي عن غيره من «المثقفين» السوريين. □

بالرغم من أن مواد دراستنا الجامعية في قسم الصحافة كانت تتضمن بعض المواد عن السينما الوثائقية، لكنها لم تكن كافية لنمارس مهنة البرامج الوثائقية مباشرة بعد التخرج، لذا فإن معرفتي بعمر أميرالاي منذ عدة سنوات، كانت بمثابة الأداة لتعميق مهاراتي في هذا الشأن، فحينما كنت أخبره عن مشاريعي المؤجلة وبعض القليل الذي أنجزته، كانت تعليقاته وملاحظاته أبعد ما تكون عن روح الأستاذ، فدائماً كان يعلق أصابعه العشرة في الهواء قبل أن يجيب بهدوء: عزيزي، المهم في الأمر، أن تكون كل لقطة مصورة تعبيراً عن جزء فعال ومرتب مما تريد أن تقوله في ملخص الفيلم، وبطريقة غير مباشرة، كما أن الكاميرا فقط يجب أن تكون في مكان يعجز التعليق عنه، وأن تكون التعليقات في لحظة تظن أن المشهد قد لا يصل للمشاهد. لم تكن ملاحظاته هذه درسا في السينما، بل تعبيراً عن رؤيته لمعنى السينما بذاته، فهو كان يردد دوماً عبارة شهيرة: «لولا السينما، لما أدركت تلك الحقيقة البديهية البسيطة التي تقول: إني جزء من الحياة وليس العكس».

عمر أميرالاي، أيها الناظر ألينا من هناك، من أفقك الأزرق، نحن الباقين هنا، في هذا المكان الحزين من صحرة العالم، مديح الموتى

فعل مستهلك بطبعه، ولما يليق بمقامك، لكنني أعاهدك بأن تبقى ابتسامتك في روجي ما حييت. □
المستقبل - الماحد 13 شباط 2011 - العدد 3911 - نوافذ - صفحة 13